

٣ - الشاعر الذي قتل وعرفت جنته

لسان الدين بن الخطيب

بقلم الاستاذ الجليل الشيخ احمد السكندري

من أمثلة ما تقدم في كتابة لسان الدين قوله في مفتتح رسالة كتب بها على لسان سلطانه محمد ، إلى شيخ الموحدين بتونس : « ابن تراجين » يخبره عن غدر أخيه إسماعيل :
« من أمير المسلمين أيده الله نصره ، وأعلى أمره وأظهره ، إلى ولينا في الله تعالى الذي له القدم الرفيع المناصب ، والمجد السامي الذوائب ، والسياسة التي أخبارها سمر الركبان وحدو الركائب ، الشيخ الجليل الكبير الشهير الخطير الهام الأمضى الرفيع الأعلى ، الأجد الأوحد ، الأسعد الأصعد ، الأوفى الظاهر الطاهر ، الفاضل الباسل ، الأرضي الأتقي ، المعظم الموقر المبرر ، علم الأعلام ، سلالة أكابر أصحاب الامام ، معيد دولة التوحيد إلى الانتظام ، إلى محمد عبد الله . . الخ »

وقوله على لسان سلطانه يخاطب سلطان فاس ، وقد أرسل إليه ولده الذي خلفه بفاس :
« المقام الذي تقلد نافلة الفضل شفعا ، وجود صورة الكمال أفراداً وجمعاً ، واستولى وجمع بين المنح والتهنئة بالفتح فأحرز أصلاً وفرعاً ، واستحق الشكر عقلاً وشرعاً ، وأغرى أيدي جوده بالقصد الذي هو حظ وليه من وجوده ، فأنار من جيش اللقاء تقياً ، ووسط به جمعاً ، مقام محل أخينا الذي أقلام مقاصده ذرية بحسن التوقيع ، وعيوز فضله مذكاة لأحكام الصنيع ، وعذبات فخره تهفو بذروة المنيع ، ومكارمه تتفنن فيها مذاهب التنويع ، أبقاه الله تعالى وألسن فضله ناطقة ، وأقيسة سمعه صادقة ، وألويته بالنصر خافقة ، وبضائع مكارمه في أسواق البر نافقة ، وعصائب التوفيق لركائب أغراضه موافقة السلطان . . الخ »

(٢) توخيه في كتابته إجمال اللفظ وتفخيم المعنى ، ورؤيه بقلمه عن الحضيض الذي أسفت إليه أقلام كتاب المصريين من التبذل في استعمال بعض العامى والأعجمي للتوصل إلى نكتة أو تورية أو جناس ، ترى ذلك في كثير من رسائله ومؤلفاته ، كقوله : من رسالة يستنجد بها أهل المغرب لنصرة الأندلس ويحثهم فيها على الجهاد :
« أيها الناس ! رحمكم الله تعالى ، إخوانكم المسمون بالأندلس قد دهم العدو قصمه الله

ساحتهم ، ورام الكفر - خذله الله - استباحتهم ، وزحفت أحزاب الطواغيت عليهم ، ومد الصليب ذراعيه إليهم ، وأيديكم بعزة الله أقوى ، وأتم المؤمنون أهل البر والتقوى ، وهو دينكم فأنصروه ، وجواركم القريب فلا تخفروه ، وسبيل الرشد قد وضح فلتبصروه ، الجهاد الجهاد ! فقد يعين الجار الجار ، فقد قرر الشرع حقه وبين ، قد استغاث بكم الدين فأغيثوه ، قد تأكد عهد الله وحاشاكم أن تنكثوه . »

وقوله من رسالة على لسان سلطانه الأول إلى رسول الله :

« . . . وإني لما عاقتني عن زيارتك العوائق ، وإن كان شغلي عنك بك ، وعدتني الأعداء عن وصل سببي بسببك ، أصبحت بين بحر تطلطم أمواجه ، وعدو تكاثف أفواجه ، ويحجب الشمس عند الظميرة عجاجة في طائفة من المؤمنين بك ، ووطنوا على الصبر نفوسهم ، وجعلوا التوكل على الله وعليك لبوسهم ، ورفعوا إلى مصارحتك رءوسهم ، واستعذبوا في مرضاة الله ومرضاة بك لبوسهم ، يطعمون من هيمة إلى أخرى ، ويلتفتون والخوف عن يميني ويسرى ، ويقارعون - وهم الفئة القليلة - جموعاً كجموع قيصر وكسرى ، لا يبلغون من عدوهم الدر عند انتشاره ، عشر معشاره ، قد باعوا من الله تعالى الحياة الدنيا ، لأن تكون كلمة الله هي العليا ، فيأله من صوت مروع ، وصريخ إلا منك ممنوع ، ودعاء إلى الله وإليك مرفوع ، وصيحة حمر الحواصل تخفق فوق أوكارها أجنحة المناصل . . . الخ »

(٣) قلة تكلفه للمحسنات البديعية ، ومراعاة القصد فيها بالإضافة إلى كتاب المصريين في زمانه ، وإن راعاها في الاستعارة والتشبيه فلا يخرج منها إلا ظاهراً بالأجادة مالكا ناصية الابداع والاختراع ، وإن راعاها في التورية والتوجيه ، قصر فيها بابه ، وقل اضطلاعه ، وغث اصطناعه ، إذ ليس وراء أقلام المصريين للتورية غاية ، ولا لرياضتهم بها نهاية . ترى ذلك مثبتاً في رسائله وتراجمه لأهل الفضل والأدب ، ومن أمثلة ذلك قوله من رسالة كتبها على لسان سلطانه إلى رسول الله يقص فيها نبأ بلاد فتحها من بلاد العدو ، ومنها بلده الجزيرة الخضراء ، حيث يقول :

« . . . وأما خندقها فصخر مجلوب ، وسور مقلوب ، فصدقها المسلمون القتال بحسب حملها من نفوسهم ، واقترا أن اغتصابها ببوسهم ، وأقول شحوسهم ، فرشقوها من النبال بإطلاق تحجب الشمس فلا يشرق سناها ، وعرجوا في المراقى البعيدة لفرعون مبنها . »

ومنها قوله فيها يصف فتح المسلمين لحصن منيع : « فأحاطوا به إحاطة القلادة بالجيد ، وأذلوا عزته بعزة ذي العرش المجيد ، وخفقت بها الرايات يسمها وسمك ، ويلوح في صفحاتها اسم الله تعالى واسمك ، فلا ترى إلا نفوساً تتراحم على مورد الشهادة أسرابها ، وليوثاً يصدق في الله ضرابها ، وأرسل الله عليها رجلاً إسرائيلياً من جراد السهام ، تشد آياته عن الأفهام ،

وسدد إلى الجبل النفوس القابلة للإلهام ، من بعد الاستغلاق والاستبهاام ، وقد عيت جوارح صخوره في قنائس الهدام ، وأعيا صعبه على الجيش الإلهام ، فأخذ مسائف النقض والنقب ، ورعا فوق أهله الصقب ، ونصبت المعارج والمراق ، وفزعت المناكب والتراق ، واغتمم الصادقون مع الله الحظ الباقي ، وقال الشهيد السابق : يافوز استباقى ، ودخل البلد فالتحم السيف ، واستلب البخت والزيف ، ثم استخلصت القصبه ، فعملت أعلامك في أبراجها المشيدة ، وظنر ناشد دينك منها بالنشيدة ، وشكر الله تعالى في قصيدها مساعى النصائح الرشيدة ، وعمل مايرضيك يا رسول الله في سد ثلمها ، وصون مستلها ، ومداواة ألمها ، حرصاً على الاقتداء فى مثلها بأعمالك ، والاهتداء بمشكاة كمالك ، ورتب فيها الحماة تسجوا العدو ، وتصل فى مرضاة الله ومرضاتك برواحها الغدو الخ »

وقوله فى رسالة كتب بها إلى الرئيس عميد مراکش ، عامر بن محمد الهنتانى ، وقد أزمع الجواز إليه من الأندلس بعد أبيات صدرها بها (هنتانة جبل قرب مراکش) :
« لم يكن همى - أبقاك الله - مع فراغ البلاد وإسعاف الآمال ، ومساعدة الأيام والليال ، ذ الشمل جميع ، والزمان كله ربيع ، والدهر مطيع سميع - إلا زيارتك فى جبلك الذى يعصم من الطوفان ، ويواصل أمنه بين النوم والأجفان ، وأن أرى الأفق الذى طلعت منه الهداية ، وكانت إليه العودة ومنه البداية ، فلما حم الواقع ، وعجز عن خرق الدولة الأندلسية الراقع ، وأصبحت ديار الأندلس وهى البلاقع ، وحسنت من استدعائك إياى المواقع ، قوى العزم وإن لم يكن ضعيفاً ، وعرضت على السفر بسبيلك فألقيته خفيفاً ، والتمست الاذن حتى لا ترى فى قبلة السداد تحريقاً ، واستقبلتك بصدر مشروح ، وزند للعزم مقدوح ، والله تعالى يحقق السؤل ، ويسهل بمنوى الأمائل المثول . ويهين من قبل هنتانة القبول بفضله »

(٤) مزج كتابته الأدبية بأقيسة الفقهاء والعلماء ، لغلبة روح الفقه وعلوم الدين على أهل المغرب ، حتى كان من غر الوزراء والقائد أن يلقب بالفقيه ، وظهر أثره بينا فى كتابة متأخريهم كلسان الدين بن الخطيب وأهل عصره ، وجرهم هذا الروح أيضاً إلى الاكثار فى كلامهم من ذكر مصطلحات الفقه والعلوم كما رأيت فى الرسالة الآتية ، وكما ترى فيما يأتى من قوله .

(٥) ومنها استعماله فى كثير من رسائله الأدبية أساليب الفقهاء والعلماء وأقيستهم وطرق تعليمهم ، مما تتجافى عنه رسائل المتقدمين من بلغاء الأندلس ، كابن شهيد ، والمصنفى ، وابن زيدون ، وابن المطرف بن عميرة ، وذلك أنهم وإن زاولوا الفقه والعلوم كانوا يقرأون ويكتبون من كتب الفقه والعلوم ما كانت عبارته غضة الأساليب ، قريية الشبه بكتب الأدب البليغة ، لم تتسرب بعد إليها الأقيسة المنطقية والتعريفات العلمية . ، وابن الخطيب نشأ فى عصور متأخرة كانت فيها العلوم قد اصطبغت بصبغة منطقية جدلية وأصبحت ذات رسوم وصور محدودة

في الشرح والتعليل ، وهو قد عانى التأليف والتدريس في علوم شتى وطال عهده فيها ، فسرت عدوى الصناعة التأليفية العلمية إلى صناعة التنميق والتديج الأدبي الذي أساسه الاستعارة والتشبيه ، وحسن التعليل ، وترادف الجمل ، ومادته الغالبة عليه الخيال المؤثر في النفس بالتحسين والتهجين ، لا شرح الحقائق العلمية كما هي عليه ، وقاما تنهياً لانسان طبيعتان وملكتان تستقل إحداها عن الأخرى استقلالاً تاماً .

ومن أمثلة ذلك في كتابته قوله في رسالة خاطب بها الرئيس أبا عبد الله بن مرزوق :
 « بماذا أخطب تلك الجلالة ، فيتيسر الخطاب وتحصل الدلالة ، ألسيدي ويشركني فيه ، من قال لا إله إلا الله بفيه ، أو بروح حياتي وماهية ذاتي ، وذخر الكبير الكثير ، لا بل ذلك الأثير ، وهو تضيق على الولد والأهل ، وتعدى المراتب المحدودة من الجهل ، فلم يبق إلا الإشارة الخارجة عن وظائف اللسان ، وهي بعض دلالات الانسان ، أخذت الأكسير ، وجبرت الكسير . . . »
 إلى أن قال فيها :

« . . . وليعلم سيدي أن النفس طماعة جماعة ، وسراب آمالها بحاره لماعة ، فلا تقيق من كد ، ولا تقف عند حد ، سيما إذا لم يهذبها السلوك والتجريد ، ولم يسر منها في عالم الغيب البريد ، ولا تجلت لها السعادة التي يجذب بها المراد ، ويشمر لها المريد ، وقد مثلت الآن خصماً ، يوسع ظهر استظهارى بالتسليم قصاً ، ويقول : المال عدلي عند القيمة ، وطبيبي في الأحوال السقيمة ، وهو نتيجة كدى عند الأقيسة العقيمة . . . الخ »

وقوله في آخر رسالة يخاطب بها أحد وزراء المغرب الأقصى مثنيًا عليه ، وداعيًا له ومهنئًا بابلاله من مرض :

« . . . ولو تقدمت لم يضرب إلا بك المثل ، ولم يقع إلا على سننك الاجماع المنعقد على آدابك بالعمل ، والمملوك لما شام مالكة وبرق العافية ، وتدرع باللطاف الخافية ، كتب مبشراً بالهناء ، ومذيعاً ما يجب من الحمد والثناء ، وشاكراً ماله بوجوده من الاعتناء ، فقد بادر ركن الدين بالبناء ، وأبقى الستر والمنة على الآباء والأبناء ، فنسأل الله تعالى أن يمنع منك تأثير الملوكة ، ووسطى السلوك ، وسلالة أرباب المقامات والسلوك ، ويبقيك وحصة الصحة وافرة ، وغرة العزة القعاء سافرة ، وغادة السعادة غير نافرة ، وكتيبة الأمل في مقامك السعيد غائمة ظافرة ، مازحفت للصباح شهب المواكب ، وتفتحت بشط المجرة زهر الكواكب والسلام . . »

وقوله من رسالة : « وقد أصبحت سعادتي عن سعادتك فرعاً ، فوجب النصح طبعاً وشرعاً . . الخ »
 (٦) - ومنها التلويح إلى اصطلاحات العلوم والصناعات المختلفة المسمى عند البديعيين

بالتوجيه، وعلّة الاستكثار منه ما قدمناه آنفاً، مضافاً إلى التنويه من الكاتب بسعة محصوله، وكثرة اطلاعه، ورسوخ قدمه في علوم كثيرة، وترى ذلك مثبتاً في كل رسائله، حتى ليصح القول بأنه لا يخلو رسالة ولا ترجمة لفاضل منه، ولعله قد استعاض به عن التورية الكثيرة الورد في كتابة معاصريه من المشاركة، لاعتياص سبك التورية على أهل المغرب في قوالب، باهرة البدع، رائعة الصنع.

ومن أمثلة ذلك - فوق ما رأيت فيما أوردنا عليك - قوله في ترجمة «فاضل» :
 « توارث كل جلالة، لا عن كلاله، وجمع في العلم والحسب، بين الموروث والمكتسب »
 وقوله : « سيدى الذى هو فضل جنسه، ومزيد يومه وأمه » .
 وقوله : « ... فلولا العذر الذى تأكدت ضرورته، والمانع الذى ربما تقررت لديكم صورته، أول مشافه بالهناء، ومصارف لهذا الاعتناء، بنقود الحمد والثناء »
 (٧) ومنها : محاكاته للمشاركة في افتتاح بعض الرسائل الديوانية، وذلك في ترتيب عناصر الديباجة - لافى ألفاظها وألقابها - وإن كان كثيراً ما يلقب نفسه فيها باسم المملوك على عادة المشاركة، ويلقب المرسل إليه بلقب المجلس، كقوله : « .. ومنه نسأل أن يديم إمام المجلس العلمى محروساً من النوائب، مبلغ الآمال والمآرب، والمملوك قد قرر شأنه في إسعاف المقاصد المأمولة، من الشفاعة إليكم، والتحسب في هذه الابواب عليكم الخ ... »
 (٨) ومنها ابتداء أكثر رسائله بقصائد أو مقطعات، وقد يضمنها الكثير من الآيات الشهيرة، من غير أن يعزوها إلى أربابها، وقد يأتى بمقطعات غير شهيرة ولا يعزوها، فلا يعرف إن كانت له أو لغيره (١) .

أحمد السكندري

حيرة الادب المصرى

(بقية المنشور على الصفحة رقم ١١٨٧)

وعلى الجملة، فأنك لو تصفحت هذا الأدب المصرى القائم، رأيت موزعاً بين حياة في الجزيرة لعصر الجاهلية وصدر الاسلام، وبين حياة في بغداد أو الأندلس، فيما يلى ذلك العصر، وبين حياة في لندن أو برلين أو باريس أو أوروبا أو موسكو . ولكن أين هذا الأديب الذى يعيش في مصر ويصور عواطفه المصرية التى يلهمها ما ينبغي أن يلهم المصرى من عواطف وأحاساس ؟

الواقع أن الأدب المصرى من هذا في أشد الحيرة والاضطراب . ولعلنا راجعون إلى هذا البحث في وقت قريب ؟

عبد العزيز البشرى

(١) راجع الجزء الرابع من فتح الطيب .